دوافع الاستشراق

الأستاذة: بلخير خديجة، جامعة وهران

مقدمة

إن الاستشراق اهتمام ثقافي مصدره الغرب، ومقصده الشرق، وقد بدأت اهتمامات الغرب بالشرق قديما باعتباره يشكل الإطار الاستراتيجي سياسيا واقتصاديا منذ صراع الإغريق والفرس ، ثم تبلور معرفيا في القرون الوسطى .

وهو من بين الدراسات والمواضيع المعاصرة التي تكشف لنا عن النزوع نحو العولمة في الثقافة الغربية ليس فقط في المفهوم الفلسفي ، بل أيضا الحضاري والسياسي منه .

وظهرت في العصر الحاضر كتابات تحت عنوان الغزو الفكري أو الاتجاهات الفكرية المعاصرة وأصبحت هذه الاتجاهات إحدى المواد الدراسية في المرحلة الجامعية. وقد نال الاستشراق مكانة بارزة ضمن الحديث عن الغزو الفكري وكذلك ضمن الاتجاهات الفكرية المعاصرة أو التيارات الفكرية المعاصرة

ولهذا لقي أهمية كبيرة لدى الباحثين والمفكرين خصوصا لدى الغربيين ، الذين اعتبروه وسيلة لتحقيق أغراضهم وأهدافهم ، مستعملين في ذلك كل الطرق والأساليب التي تخدم مصالحهم الذاتية ، لهذا نجد تعدد الأسباب أو الدوافع التي دفعتهم إلى ذلك وهو ما سيبينه بحثنا هذا .

سيشمل البحث التقسيم التالي :

– مفهوم الاستشراق.

– نشأة الاستشراق

– دوافع الاستشراق (الديني ، استعماري ، اقتصادي ، علمي).

ومن بين **الأهداف التي يسعى إليها هذا البحث** :

1– إعطاء قيمة للموضوع وبالتالي جدير بالدراسة من طرف الباحثين .

2– تبيان علاقة الاستشراق بالفلسفة .

3– التعرف على حقيقة الاستشراق ومدى خطورته في العالم العربي الإسلامي .

4– الدور الذي تلعبه الثقافة الإسلامية في مواجهة الاستشراق الذي يسعى إلى تشويه صورة الإسلام.

مفهوم الاستشراق :

أ – الاستشراق لغة : هو طلب الشرق ، أو طلب العلم بأحوال الشرق ، كما في الاستغفار طلب المغفرة ، والاستفهام طلب الفهم ونحو ذلك ، قال الدكتور محمود زقزوق : " الاستراق هم علم الشرق أو علم العالم الشرقي ، والمستشرق كلمة تطلق على كل غربي يشتغل بدراسة الشرق ".[1]

وهي كلمة مشتقة من الفعل " شرق " فيقال : شرقت الشمس شرقا وشروقا إذا طلعت .

1– أمين أبولاي ، معلم الثقافة الإسلامية ، ط1998،1،ص 263.

ب- **الاستشراق اصطلاحا** : هو ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته ، من أجل الإسهام في صياغة تصورات الغرب عن العالم الإسلامي ".[1]

تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق ، ويطلق على كل من يبحث في أمور *Orientalisme* فكلمة الاستشراق إذن

الشرقيين وثقافتهم وتاريخهم ، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية من الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة ، معبرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما .

وكان يقصد به في العصور الوسيطة دراسة العبرية لصلتها بالدين ، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم ، إذ بينهما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم ، كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف .[2]

ويلاحظ بعضهم أن كلمة " إستشراق" تشمل الشرق كله من حدود اليابان والصين ، ولذالك يفضل بعضهم كلمة " استعراب " و" مستعرب" ، لأن كلمة الاستشراق تشمل كل الشرق ، بينما يسوي آخرون بين المستشرق والمستعرب لأن كلاهما هو هذا الأوربي المعني بحضارة الشرق العربي بصوره المختلفة منذ ظهور الإسلام في القرن السابع إلى اليوم

وقد استقر مصطلح الاستشراق في المؤتمر الأول للمستشرقين في باريس سنة 1873 ، ثم تحول لأسباب عدة إلى تخصص في موضوعات في مؤتمرهم الثاني والثلاثين في

1- المرجع نفسه ، ص 263.

2- جابر قميحة ، أعداء الإسلام ووسائل التضليل ، القاهرة ، ط1، 2002 ، ص 89.

20 أوت 1986، يقول لويس : "كان اصطلاح الاستشراق يستخدم في الماضي أساسا بمعنيين : أحدهما هو مدرسة في فن التصوير تضم فنانين ينتمون في الغالب إلى أوربا الغربية زاروا الشرق الأوسط وشمال إفريقيا ، وصوروا ما شاهدوه أو تمثلون بطريقة مغرقة في الرومانسية والإشراق ، أما المعنى الثاني والأكثر شيوعا ، والذي لا يرتبط بالمعنى الأول ، فهو فرع من فروع التراث البحثي."[1]

نشأة الاستشراق:

يرى الكثير من الباحثين أنه ليس من السهل تحديد الزمن الذي بدأ فيه الاستشراق فهناك من يعودون به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس ، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين ، بينما يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري.

إلا أن النواة الأولى لحركة الاستشراق ، بشكلها الثقافي ترتبط بعلاقة وثيقة مع حركة " الاستشراق" بشكلها الأساسي –العسكري ، والتي كانت الحملات الصليبية نواتها الأولى كذلك ، ولكن الصلة بين الثقافة العربية الإسلامية وثقافة الغرب الأوربي كانت قد انعقدت قبل الحركة الصليبية خلال الحروب العربية– البزنطية وخلال عهود الوجود العربي في كل من الأندلس وصقلية ، وازدهار حركة التثقف الأوربي فيهما بالثقافة العربية الإسلامية وحركة نقل منجزات هذه الثقافة ، ولاسيما الفلسفية والعلمية التجريبية منها ، إلى اللاتينية والعبرية

1- جماعة من المؤلفين ، إشكالية العلاقة مع الغرب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1، 1997، ص 63.

وظهور المدارس والمذاهب الفلسفية الأوربية المتأثرة بالفلاسفة العرب المسلمين : الكندي والفارابي وابن سينا والرازي أبي بكر والغزالي وابن رشد.[1]

هذا من حيث النشأة بصورة مبدئية ، أما من حيث الظهور الرسمي فيرجع إلى عام 1779 م في كل من بريطانيا وفرنسا ، ثم انتشر في باقي دول أوربا وأمريكا بعد ذلك ، حيث عملت هذه الأخيرة على نشر الثقافة العربية ، فأنشأت مدارس للغات الشرقية ومعاهد للدراسات الإسلامية في برلين ولندن وباريس وروما ، وعقدت مؤتمرات المستشرقين من حين لأخر ، فكانت حافزا على الدراسة وهاديا إلى البحث .

كما أنها ساعدت على نشر مخطوطات قيمة ، ومكنت من طبع كتب بعد تنقيحها وتحقيق نصوصها والتعليق عليها وشرحها.

واستمرت حركة الاستشراق في التطور والنماء لتصبح في مدة قياسية حركة واقعية ، ولها وجود حتمي أصبح يلعب دورا في الأحداث ومجريات الأمور السياسية والاقتصادية والتجارية بعد أن أصبح المستشرقون يحتلون مناصب هامة في دولهم ، بل أصبحت دولهم ترى ضرورة إدخالهم في اللعبة السياسية ، ومثال ذلك المستشرق الفرنسي بلاشير الذي عيّن خبيرا في شؤون العرب والمسلمين في الخارجية الفرنسية وقبله لوي ماسينيون الذي عيّنه وزارة المستعمرات الفرنسية مستشارا للوزارة شؤون شمال إفريقيا .[2]

هذا ولم يقف أثر المستشرقين عند الغرب وحده ، بل امتد إلى الشرق فأخذ عمهم الشرقيون الكثير من آرائهم ، وترجموا بعض كتبهم ، وساهموا بدورهم في إحياء مجدهم .

1- حسين مروه ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي ، بيروت ، 1988، ص 107

2- أمين أبولاي ، معلم الثقافة الإسلامية ، المرجع السابق ، ص 264.

– دوافع الاستشراق :

دوافع الاستشراق أو كما يسميها البعض بأهداف الاستشراق ، فالهدف غالبا ما يكون سببا لوجود الدافع ، يقول الأستاذ الميداني " إن الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل ".[1]

فجل الدراسات الاستشراقية إنما وضعت من أجل تحقيق أهداف معينة لا تخرج عن كونها حقائق تخدم مطالبها ، وليس بالضرورة أن توجد هذه الأهداف جميعها عند فئة معينة من الغربيين ، لكنها بمجملها موجودة عند جميع الفئات وتتمثل هذه الأهداف أو الدوافع فيما يلي :

أ – دافع ديني .

ب– دافع استعماري.

ج– دافع اقتصادي.

د– دافع علمي .

1 – الدافع الديني :

يشرح ألبرت حوراني *Ox ford* في كتابه : *Islam in européen thaught* الأستاذ: " إن الإسلام قد شكل تحديا هائلا للغرب منذ أيامه الأولى ...وقد شكل هذا التحدي الجوانب الدينية والسياسية والحضارية ، فصمم الغرب على الاستجابة لهذا التحدي، وفي هذا السياق المحموم نشأ الاستشراق ، أي نشأ في إطار استجابة الغرب لما

1– أمين أبولاي ، معلم الثقافة الإسلامية ، المرجع السابق ، ص 265.

تصوره تحديا إسلاميا شاملا ، تلك الاستجابة الغربية التي اعتمدت (حتمية الصراع) مع الإسلام إستراتيجية عامة ومطلقة ." [1]

يبدو من خلال هذا النص أن الغرض الأساسي للاستشراق هو محاربة الإسلام وانتزاع كل أصالة منه ، وهو مانجده أيضا في نص الهواري الذي بيّن الغاية التي ينشدها المستشرقون بقوله : " وعندي أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب والهندسة والمحاماة ، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير ، ولا يخفى عليك أن التاريخ الإسلامي ينقسم إلى قسمين : القسم الأول منه هو الإسلام من حيث هو دين وعناصره القرآن والحديث وحياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والقسم الثاني منه تاريخ الدول العربية التي نشأت وعاشت في ظل الإسلام ، وهذا القسم قد خدمه المستشرقون حقا لأنه نوع من المباحث التاريخية الحرة. أما القسم الأول منه فهو بيت القصيد ، ولا يتصدى له كل المستشرقين والذين يتصدون له نرى كلامهم مملوءا بالتشكيك ، والاستنتاج الخاطئ والغمز واللمز ، إن لم يكيلوا التهم جزافا ، ويرموا الدين الإسلامي بما شاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية . [2]

فقد عملت الدول الأوربية بشتى الطرق لإثارة الفتن والاضطرابات من أجل السيطرة على العالم العربي الإسلامي سياسيا واقتصاديا ، خصوصا بعدما كان الفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية يشكل تهديدا خطيرا على أراء الكنيسة حول طبيعة المسيح وعبادة الصور المقدسة .

1- محمد عبد الله الشرقاوي ، الاستشراق والنقد الذاتي في ضوء الكتاب ، مجلة إسلامية المعرفة ، العدد 22 ، 2000، ص 126

2- عمر فروخ ، ماهر عبد القادر ، حسان حلاق ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1990، ص 437.

فأصبحت الوحدة الإسلامية تشكل خطرا على الغرب ، يفسره البعض إلى العداوة التي أثارها الصليبيون ، وإلى أن المسلمين لا يزالون متأثرين بموقف الدول النصرانية من الإسلام في أثناء الحروب الصليبية .

إلا أن المستشرق كارل بكّر يرى السبب أبعد قليلا من ذلك ، إنه يرى أن الإسلام لما انبسط في العصور الوسطى أقام سدّا في وجه انتشار النصرانية ، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها."[1]

إن الشيء الذي كان يخوف الغرب هو القوة التي تكمن في الإسلام ، ولهذا حاول المبشرون أن يرو العداوة بين الإسلام والغرب دينية ، في حين كانت تبدوا في صورة سياسية ، ولقد أبرز لورنس بروان هذا الموقف في صورة واضحة حينما قال : " إذا اتحد المسلمون في أمبروطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نعمة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير ".[2]

ولذلك كان التبشير عاملا مهما في كسر شوكة هذه الحركة ، لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في صورة جذابة تعمل على سلب الحركة الإسلامية من عنصري القوة والتمركز .

وهو ما أكده أحدهم بقوله : " الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية... والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا ".[3]

1-مصطفى خالدي ،عمر فروخ ، التبشير والاستعمار ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط5، 1973، ص 36.

2- المرجع نفسه ، ص 37.

3- عمر فروخ ، ماهر عبد القادر، تاريخ العلوم عند العرب ، المرجع السابق،ص 437.

ولهذا عملت الدول الأوربية على إنشاء مراكز علمية لدراسة تاريخ الإسلام العرب في أوربا ، وكانت الكنيسة هي الأولى المبادرة إلى ذلك ، حيث أنشأت أول مركز لذلك في طليطلة بالأندلس 1250، وحينما عقد المجمع الكنسي في قينا في سنة 1312م ، أقر التقرير الذي أعدّه ريموندلك الذي دعا إلى إنشاء عدة مراكز لتعليم العربية والسريالية والعبرية في جامعات أوربية مشهورة منها : إكسفورد وباريس تحت رعاية الكنيسة الكاثوليكية.

إن الاستشراق يخدم الهدف التبشيري العام الذي رسمته الكنيسة الكاثوليكية وحددته لأولئك الذين أخذت تبعثهم إلى الشرق للتبشير بالنصرانية ، والذين لم يكونوا في حقيقة الأمر إلا تجارا أو رجال دعوة (اجتماعية أو اقتصادية) لا صلة لها بالتبشير.

ومن جهة أخرى رغب المسيحيون في التبشير بدينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم إعداد الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي "[1] . فكانت دوافع التبشير تتحقق من خلال الاستشراق.

وإذا كان الاستشراق يعمل في خدمة التبشير ، فإن التبشير في حد ذاته يعمل من خلال أهداف استعمارية ، ويلتقي التبشير والاستشراق والاستعمار معا في ميدان واحد من أجل خدمة الصهيونية العالمية .

2- **الدافع الاستعماري:**

تمثل هذا الدافع في الأطماع السياسية والاقتصادية والعسكرية للدول الأوربية في الشرق، ومن خلال فئة من المستشرقين وبين حكوماتهم الأوربية التي استعانت بخبراتهم وثقافاتهم عن البلدان التي يدرسونها وذلك من أجل توطيد سيطرتها على المنطقة .

1- المرجع نفسه ، ص 266.

وربما كان إنشاء مؤسسة إستشراقية بفعل قرار سياسي كما في معهد " دراسة اللغات الشرقية " في باريس الذي أسس عام 1885 من أجل الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية وبلدان الشرق الأقصى ، مما يشكل أرضية تشمل عملية الاستعمار في تلك المناطق .[1]

فنصب دور المستشرقين القائمين على خدمة الاستعمار في إقناع الشرقيين بتقدم الغرب الأوربي وتفوقه الحضاري الفطري عبر العصور " وأن المسؤولية الملقاة على الشعوب الأوربية من خلال فكرة عبء الرجل الأبيض ، مسؤولية إنسانية حضارية تجاه العقلية الشرقية العاجزة بالفطرة والتي لا تتمتع بالقدرة على التحليل والنقد والتركيب ، بل أنها عقلية بسيطة ساذجة تؤثر عليها الخرافات."[2]

فإن أوربا انتقلت من حظيرة الفكر اللاهوتي الكنسي والإيديولجيا الصليبية في رؤيتها للأخر لإلى قداسة الفكر الوضعي وإيديولوجيا الاستعمار في هيمنتها على الأخر.

لقد وصلت أوربا في القرن الثامن عشر إلى قناعة هي أن الحضارة الأوربية قد اكتمل بناؤها المادي ، وذلك بسبب التطور الاقتصادي والتقني من جهة ، وتدهور الحضارة العربية الإسلامية المنافس الوحيد لها من جهة أخرى ، وهكذا يكون للغرب وعي بذاته مضمونه " أن أوربا مركز للحضارة وللثقافة وللفعل وللتاريخ "[3].

1- أمين أبو لاي ، معلم الثقافة ، المرجع السابق ، ص 266.

2- فاروق عمر فوزي ، الاستشراق والتاريخ الإسلامي ، منشورات الأهلية ، عمان ، ط1، 1998، ص 35.

3- منير بهادي ، الاستشراق والعولمة ، دار الغرب ، وهران ، ط1، 2002،ص 30.

هذا الأمر أدى إلى تشجيع المثقفين في الارتباط بأوربا ثقافة ولغة ، والابتعاد كليا عن الهوية الثقافية والحضارية الشرقية خصوصا عندما ظهرت الكثير من الدراسات الاستشراقية بمظاهر سياسية أو دينية أو حضارية ، وزرعها بين شعوب الشرق من أجل زعزعة الوحدة الوطنية وبث الفتن والنزعات العنصرية .

ويؤكد المستشرق دي بور عدم وجود ما يسمى بالفلسفة الإسلامية قائلا : " ظلت الفلسفة العربية على الدوام فلسفة انتخابية قوامها الاقتباس الصرف من ترجمان الإغريق " [1]

وهو ما وضعه الفيلسوف الفرنسي " أرنست رينان " في نظرية قسم فيها الجنس البشري إلى نوعين : جنس سامي يختص فطريا بالا يمان بالغيبيات والأساطير ، وبالتالي ليس له القدرة على النقد والتحليل ، وجنس آري قادر على

التميز والتركيب والتحليل ، ومنه جاءت نظرته في الفلسفة العربية الإسلامية بأنها لم تكن عقلانية وفلسفية .

إلا أن الدراسات الشرقية لم تقف عند هذا الحد من الصلة العلمية بين الشرق والعرب والاكتفاء فقط بنقل التراث الحضاري من المشرق إلى المغرب ، فقد : " تلقف الاستعمار هذه الحركة وكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها وكان قناصلهم في بلدان المشرق عمالها ".[2]

فلم يكن أمام الاستعمار سوى النفوذ إلى الشرق بشتى الطرق والوسائل ليقطع الطريق على الإسلام ويمنعه من التقدم الحضاري : وهنا ظهرت الحاجة والرغبة في بعض

1- فاروق عمر فوزي ، الاستشراق والتاريخ الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 35.

2-عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، المرجع السابق ، ص 440.

الدول الأوربية إلى إعداد نفر من أبنائها إعداد لغويا متينا حتى يستطيعوا التعامل مع المستعمرات بلغاتها ولهجاتها .[1]

فكانت الدوائر الأوربية الاستعمارية ومن التحق بركبها من المستشرقين يهدفون إلى جعل المشارق تبعا للغرب الأوربي في الفكر والثقافة .

ولهذا نجد جل الباحثين تقريبا يستعملون مصطلح " الغزو الفكري" أو الاستعمار الثقافي للتعبير عن نشاطات المستشرقين الأوربيين التي تتفق بحوثهم مع الأهداف الاستعمارية في السيطرة على منطقة معينة .

إذن لقد كان الدافع الاستعماري بعد التبشير من بين الدوافع الهامة لاستشراق لأنه كان لابد للغرب من معرفة كل شيء عن الشرق حتى يستطيع أن يهيمن سيطرته الكلية عليه .

ولم يقف الاستعمار إلى هذا الحد ، بل لجأ أيضا إلى استغلال الكنيسة لأهدافه خصوصا بعد احتواء الاستشراق من خلال التبشير ، وقد بيّن ذلك المفكر الإسلامي الكبير محمد البهي هذا الارتباط مصورا لنا المسألة بصورة دقيقة ، حيث ذهب إلى أن الاستعمار اقتنع بأن المسيحية " ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم الحماية ، وزودهم بالمال والسلطان ، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين ثم اتصل بالاستعمار".[2] هذا الأمر زاد من قوة المستشرقين ، فكان من الضروري أن تنطلق أهداف الاستشراق تبعا للأهداف الاستعمار.

1- المرجع نفسه ، ص 440.

2- المرجع نفسه ، ص 441.

إن الفكر الأوربي الذي كان وراء العقلية الاستشراقية أو بعضها على أقل تقدير ، إنما كان وحسب تعبير عبد الحميد " فكر لا يؤمن إلا بالقهر والسيادة والتمحور حول الذات عرقيا وثقافيا ، في ضوء تضاؤل مقومات الدوام والثبات ولا سيما الأخلاقية منها ، على رأي جيمس كارتر [1] رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق.

الدافع الاقتصادي :

عندما بدأت أوربا نهضتها العلمية والصناعية والحضارية ، كانت بحاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها ، فحرصت على تشجيع الاستشراق الذي يعينهم على معرفة أحوال الشرق الاقتصادية لترويج بضائعهم وشراء مواردهم الطبيعية ، ومنافسة الصناعات المحلية التي كانت لها مصانع مزدهرة في مختلف البلاد الإسلامية .

بعد ما كان البحر الأبيض المتوسط مركزها والمنطقة الإستراتيجية التي دارت عليها كل الصراعات الحضارية الكبرى في التاريخ ، أهمها الصراع العربي الإسلامي — المسيحي الأوربي ، بصفتها مركز التقاء القارات الآسيوية الإفريقية والأوربية ، في ذلك الوقت حدث تطور لقوى الإنتاج في غرب أوربا ، نظرا لاختراع المحراث الحديدي المثقل ، وتعميم الطاحون المحرك بالمياه الجارية ، ونتج عن ذلك حركة زراعية كبرى ، أدت إلى سهولة التبادل التجاري بينهما خصوصا المواد الأولية الهامة : (القطن ، الصوف ، الدخان ..الخ) التي تحتاجها الصناعة الأوربية في الشرق / العربي الإسلامي.

ولم يتوقف الهدف الاقتصادي عند بدايات الاستشراق ، فإن هذا الهدف ما زال أحد أهم الأهداف للاستمرار الدراسات الاستشراقية ، فمصانعهم ما تزال تنتج أكثر من حاجة أسواقهم المحلية ، كما أنهم ما زالوا بحاجة إلى المواد الخام المتوفرة في العالم الإسلامي .

1- علي بن إبراهيم النملة ، نقد العقل المعاصر ، دار الفكر ، دمشق ، ط1، ص 112.

أما فيما بعد وإلى زمننا الحاضر ، فإن الاستشراق يسهم في تحقيق الأهداف الاقتصادية بمفهومها الواسع ، بحيث يشمل الصناعة والزراعة والتجارة ، وعلى رأس ذلك كله الحصول على المواد الصناعية الأساسية وإيجاد الأسواق الاستهلاكية الحيوية لتسويق بضائعهم ومنتجاتهم المختلفة.[1]

ونجد أشهر البنوك العربية الموجودة في سويسرا تصدر تقارير شهرية هي في ظاهرها تقارير اقتصادية ، ولكنها في حقيقتها دراسات استشراقية متكاملة ، حيث يقدم التقرير دراسة عن الأحوال الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية للبلاد العربية الإسلامية ليتعرف أرباب الاقتصاد والسياسية على الكيفية التي يتعاملون بها مع العالم الإسلامي .

هكذا كانت رؤية الغرب ل"الشرق" الآخر ليس كموضوع معرفي فحسب ، بل كحاجة اقتصادية أيضا.

الدافع العلمي :

إن ما يقوم به بعض المستشرقين من الدراسات والأبحاث في فروع العلوم الشرعية أو اللغة العربية وآدابها أو التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية تحت غطاء البحث العلمي والنزاهة العلمية ، إنما هو في حقيقة الأمر هيمنة فكرية ومحاولة للسيطرة على التراث والفكر الإسلامي ، لأن هناك فئة من المستشرقين اندفعت برغبة علمية صادقة وبدافع ذاتي إلى محاولة التعرف على الحقيقة قدر المستطاع ، وبالفعل قد ظهرت العديد من الدراسات القيّمة والتي تقدم فائدة علمية في تفسير التاريخ الإسلامي ، لكنها في نفس الوقت لا تخلو من تحريفات أو تشويهات تبررها بيئة المستشرق أو ثقافته.

1- أمين أبو لاي ، معلم الثقافة ، المرجع السابق ، ص 267.

" إن الخطابات التاريخية (الاستشراق منها) تابعة بشكل متشابه لنطاق واسع من البنى السردية والبلاغية المختلفة ، إلا أن البنى السردية لا تتكون ما لم تكن في مواجهة وقائع ، أي إزاء حقائق تقع خارج نطاقها ، وإن تمت صياغة تلك الحقائق عبر ما في بنية اللاآنا من اشتياق- رغبات- مكونات .غير أن هذه العوامل تبقى في المقابل إزاء موضوع خارجي لا يقتصر على موروث الصورة المكتوبة أو المدروسة عن الشرق ، أي إزاء واقع موجود على نحو فيه شيء من موروث الصورة تلك مهما حرّفت وشوهت ، إلا أنها لا يمكن أن تختلق كل ما هو غير موجود ". [1]

نجد أن الحدود التخيلية للجغرافيا الشرقية في ذهن الغربي ، ذات صلة وثيقة بعقدة الغرب من تفوق الشرق القديم لذا لم يكن هذا الاهتمام من أجل المعرفة كمعرفة ، وإنما من أجل الفهم بغرض أحكام السيطرة .

وهكذا يقرر هيرغرونغ منذ عام 1899 أهمية الاطلاع على الفقه الإسلامي للأغراض عملية ، إذ "كلما ازدادت العلاقة بين أوربا والشرق المسلم حميمية ، وكلما ازداد عدد الدول الإسلامية التي تدخل تحت سلطان أوربا ، كلما ازدادت بالنسبة إلينا نحن الأوربيين أهمية أن نصبح أكثر ألفة ومعرفة بالحياة الفكرية والفقه الديني والخلقية المثالية للإسلام ، فبعد أن بدأ الاهتمام به عند الألمان الذين استلهموا منه في كتاباتهم الرومانسية ، أصبح الاطلاع عليه ضرورة عملية ، ووسيلة لاكتساب فهم جديد عن الشرق". [2]

1- نديم نجدي ، أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد ، الفارابي ، ط1، 2005 ، ص 104.

2- محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية "العروبة والإسلام والغرب"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،ط1997،2،ص133

ولعل ظاهرة أوربية ثقافية أخرى ساعدت على نمو الدراسات الاستشراقية وتطورها في أوربا وهي ما يسميها الدكتور عبد الحميد "ظاهرة الاغتراب الغربي، ويعني به توجه العديد من الباحثين الغربيين لدراسة تراث الشرق ، وخاصة التراث العربي الإسلامي بدافع ذاتي وشخصي لانشائية فيه كرد فعل لانغماس الثقافة الغربية والحياة الأوربية في النزعة المادية."[1]

وهو ما لجأ إليه بعض المستشرقين الذين لطالما بحثوا عن الحياة الروحية والإيمانية التي تكاد تنعدم في الغرب ، فبحثوا عنها في أحضان الشرق ، حيث طمأنينة النفس والاستقرار الروحي ، وهو ما دفع بالمستشرق لويس ماسنيون إلى دراسة التصوف الإسلامي .

إضافة إلى الحركة الفلسفية والعلمية الكبرى التي شيدها مفكرون وفلاسفة أمثال الفارابي ، ابن سينا والجاحظ ،وابن المقفع وابن رشد وغيرهم قد أثرت في أوربا .

لكن تظل الفلسفة في رؤية الوعي التاريخي الأوربي مجرد نقل ومحاكاة للعلم والفلسفة اليونانية ، وهو ما أدى إلى إقصاء ثقافته من مدينة الله كما جاء في الخطاب اللاهوتي المسيحي في العصر الوسيط ، ومن ثم طرده من حظيرة العقل إلى اللاعقل في الايدولوجيا الوضعية التي عرفت هزات عنيفة من طرف بعض الباحثين والفلاسفة منذ الستينات (ليفي سترواس ، فوكو ، ديريدا) وذلك نتيجة ما تعرض إليه الغرب من هزائم أمام حركات التحرر في العالم الثالث ولم يكن له طريقة سوى ثقافة الأخر ، وإثبات ذاته من أجل الهيمنة والسيطرة المعرفية والسياسية .

ويبين الفيلسوف الفرنسي دريدا ذلك من خلال إبرازه لآليات التفكير الغربي المتمحور حول ميتافيزيقاه المؤسسة لمفاهيمه الأساسية ، وواصفا تفكيره المتناقض مع هذا

1- فاروق عمر فوزي ، الاستشراق والتاريخ الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 38.

الفكر الميتافيزيقي بقوله : " فالتضاد مع الأزواج المفهومية أو المفاهيم المزدوجة التي يتمحور حولها الفكر الميتافيزيقي الغربي ، والتي تحيل إلى طوابق وعلاقات مترا تبة محكومة بالتوزع إلى أعلى /أسفل ، واقعي /خيالي ، الواقع / الحلم ، الخير / الشر ، الباطن / البرانية ، الكلام / الكتابة ، المثال /المادة ، الشرق / الغرب". [1]

يحاول دريدا من خلال هذا النص تحديد الثنائيات التي اعتمد عليها العقل الوضعي واللاهوتي ، والتي تمثل حدود عقلانيته بإقصاء الثقافات الأخرى ، وهذا الأمر يبين حتما أن الاستشراق هو من صميم الثقافة الغربية ليس من خارجها .

هذا إضافة إلى ما عملته فلسفة التاريخ على إعادة بناء " الأنا" الأوربي بصورة تجعل تاريخ البشرية كله يقيم الدليل على أن أوربا الحديثة هي أرض التاريخ المختارة وشعبها هو شعب التاريخ المختار ، ومصيرها محط العناية التاريخية .

" إن الاستشراق كنظرية نشأ من جهة أولى ضمن نشوء إيديولوجيا غربية تجعل من الغرب مركزا للحضارة وللثقافة كما نشأ من جهة ثانية ضمن رؤية عامة لتاريخ الفلسفة مرتبطة بتلك الايدولوجيا ، وهي الرؤية التي ترى أن تاريخ الفلسفة مطابق لتاريخ الحضارة الغربية في نشأته وتطوره ". [2]

ولما كان الوعي بالذات في الثقافة الأوربية خاصة ، إنما يتم عبر الأخر ، فإن بناء "الأنا" الأوربي سيظل عملية ناقصة ما لم تكملها عملية أخرى ضرورية ، هي عملية

1- جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف ، ترجمة كاظم جاهد ، دار توبقال ، المغرب ، ط1، 1988 ، ص 27.

2- محمد وقيدي ، العلوم الإنسانية والايدولوجيا ، منشورات عكاظ ، رباط ، ط1، 1988 ، ص 184.

تفكيك الأخر ، عملية سلبه أناه وإقصائه وتحويله إلى مجرد موضوع [1] وتلك هي حقا مهمة الاستشراق.

ولقد لجأ المستشرقون في بنائهم للأنا الأوربي إلى جملة من عمليات العزل والإقصاء "للآخر" ، وفيما يلي نماذج وأمثلة الإقصاء الجغرافي : الشرق في الخطاب الاستشراقي ليس مصطلحا جغرافيا كما نقول مثلا: الصين شرق بالنسبة إلى فارس وأوربا ، شرق بالنسبة إلى أمريكا ، وإنما هي مكان ثابت ، والنسبة فيه تقع داخله ، وتتحدد بعلاقة أوربا ، فهذا الشرق أدنى ، وذلك شرق أوسط ، وذلك شرق أقصى .

الإقصاء العرقي: الشعوب التي تسكن الشرق ، شعوب سامية ، والعرق السامي كما يقول الفيلسوف الفرنسي أرنست رينان " عرق ناقص غير مكتمل منزلته بالنسبة إلى العرق الآري كمنزلة الخطاطة التي يرسمها الفنان بقلم الرصاص بالنسبة إلى اللوحة الفنية المكتملة [2] ، فشعوب أوربا شعوب آرية لا تفتقر إلى التنوع والامتلاء والخصوبة ، كما يفتقر إليها العرق السامي.

الإقصاء العقلي : الشرقيون ذو عقول أدنى مرتبة من عقول الأوربيين ، ويؤكد هذا المستشرق المشهور هاملتون غيب في أواسط هذا القرن (القرن العشرين) فيقول " صحيح انه وجد بين الشعوب الإسلامية عظماء وأن بعضهم كانوا عربا ، غير أنه كانوا استثناءات نادرة ، فالعقل العربي سواء في علاقته بالعالم الخارجي أو في علاقته بالعمليات الفكرية يعجز عن أن يطرح شعوره الجارف الحاد بانفصالية الأحداث المحسوسة وفرديتها ، وهذا

1- محمد أركون ، تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، ترجمة هاشم صالح ، مركز الإنماء العربي ، بيروت ، ط3 ، 1998، ص 128.

2- المصدر نفسه ، ص 128.

بالذات فيما أعتقد أحد العوامل الرئيسية التي تكمن وراء ظاهرة فقدان الحس بالقانون التي اعتبرها الأستاذ ماكرونالد فرقا مميزا في الشرقي ". [1]

الإقصاء الحضاري : يتعلق الأمر بالعرب والإسلام خاصة ، فالإسلام عندهم عدو الحضارة ، وبالتالي عدو للغرب ، ولا يمكن قهره إلا بالحروب الصليبية كما رأينا ذلك .

هكذا كان الغرض الأساسي من الاستشراق هو محاربة الإسلام وانتزاع كل أصالة منه وتصويره على أنه تلفيق من الديانات والثقافات السابقة ، ويحدد المستشرق الألماني المعاصر *RUDI PARET* فيقول : " كان الهدف من هذه الجهود الاستشراقية في ذلك العصر ، وفي القرون التالية هو التبشير ، أي إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام ، واجتذابهم إلى الدين المسيحي ."[2]

هذه هي إذن دوافع الاستشراق ، وهو ما نلمسه حاليا في وقتنا الحاضر ، من عودة حركية التبشير في المجتمع العربي الإسلامي ، وتوسعه أكثر بانضمام العشرات من أبناء المسلمين ممن تتلمذ على أيديهم وتخرج من مؤسساتهم إلى تنفيذ مخططاتهم وتحقيق أهدافهم ، سواء قاموا بذلك عن علم ودراية أو قاموا بذلك عن غير إدراك بما يقومون به .

كما أن هذا لا يعني أن للاستشراق أثار سلبية فقط ، بل هناك جوانب إيجابية خلفها بعض المستشرقين ، خصوصا ما كتبوه وما ترجموه عن التاريخ الإسلامي ، يقول إدوارد سعيد ": وإنني بصدد ما أسميه بالاستشراق لا أقف عنده ، لأنه دراسة أثرية عتيقة للغات والمجتمعات والشعوب الشرقية ، بل لأنه كنظام في الفكر –يقارب واقعا إنسانيا

1- المصدر نفسه ، ص 130- 131.

2- محمد بن عبد الله الشرقاوي ، الاستشراق والنقد الذاتي في ضوء الكتاب ، مجلة العالم العربي ، المرجع السابق ، ص 46.

متغاير الخواص وديناميكيا ومركبا من منطلق ما هوي وبصورة غير نقدية ، ذلك يوحي بوجود واقع شرقي دائم ، وجوهر غربي مقابل ، ولكنه أقل ديمومة ، يراقب الشرق من بعيد، هذا التضاد الزائف يخفي إلا لتعبير التاريخي ، والأكثر أهمية في اعتقادي هو أنه يخفي مصالح المستشرق."[1]

خاتمة

إنَّ ما نراه اليوم في البلاد العربية الإسلامية من انحدار للأخلاق وتلاشي في القيم ، ما هو إلا انعكاس لما سببه الإستشراق ، وما تركه في نفوس البشرية الضعيفة ، والأخطر من ذلك هو تأثر المسلمين بأفكار مغايرة لأفكار الإسلام ، بل هي معادية تماما لها ، الأمر الذي زاد في تدهور العلاقة بين شعوب أمة الواحدة .

ولم يكتف المستشرقون بهذا فحسب ، بل اتخذوا جملة من الوسائل للوصول إلى أهدافهم وغاياتهم كتأسيس جمعيات إستشراقية، وعقد مؤتمرات دولية ومحلية لمناقشة أحوال المستشرقين وسبل تطويرها ، والأعظم من هذا كله الاستهزاء بالقيم لإسلامية ، والتقليل من شأن المسلمين ، في حين نجد ندرة وجود مراكز نقد الإستشراق من طرف العالم الإسلامي ، وأول ما يمكن النظر إليه هو ذلك الإستشراق الذي كان له أثر في صناعة الكراهية ، ويتأكد ذلك لدى ما أسماه المفكرون العرب بالإستشراق الإسرائيلي ، مما يوحي بأن هناك إستشراق يهوديا غير متصهين أي أنه قريب من الاعتدال ، وان لم يكن معتدلا مع الثقافة الإسلامية .

1- إدوارد سعيد ، تعقيب على الاستشراق ، مجلة العالم العربي في البحث العلمي ، العدد 24 ، 1994 ، ص46.

نحن اليوم في حاجة ماسة إلى متابعة السير ، وملء تلك الفجوة المفقودة في تاريخ الفكر الإنساني ، والتي طالما اعتبرها الأنا الأوربي نقطة الضعف لدى الشرق ، علينا إذن جمع ونشر مؤلفات فلاسفة الإسلام ، التي لا تزال مخطوطة حتى اليوم ، لأننا لا نستطيع أن نفهمهم حق الفهم ، إلا إذا قرأناهم بلغتهم وفي كتبهم ، هذا إضافة إلى تعريف الآخر بالتراث الإسلامي وبتاريخه وثقافته كما ينبغي .

قائمة المصادر :

1- جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف ، ترجمة كاظم جاهد ، دار توبقال ، المغرب ، الطبعة الأولى ، 1988.

2- محمد أركون ، تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، ترجمة هاشم صالح ، مركز الإنماء العربي، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1998.

3- محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية " العروبة والإسلام والغرب" ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1997.

قائمة المراجع :

1 – أمين أبولاي ، معلم الثقافة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، .1998

2 – جابر قميحة ، أعداء الإسلام ووسائل التضليل ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2002.

3 –جماعة من المؤلفين ، إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، .1997

4 –حسين مروه ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، دار الفارابي ، بيروت ، .1988

5- محمد وقيدي ، العلوم الإنسانية والايدولوجيا ، منشورات عكاظ ، رباط ، الطبعة الأولى ، 1988.

6- منير بهادي ، الاستشراق والعولمة ، دار الغرب ، وهران ، الطبعة الأولى ، 2002.

7- مصطفى خالدي ، عمر فروخ ، التبشير والاستعمار ، المكتبة العصرية ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، 1973.

8- نديم نجدي ، أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند إدوارد سعيد ، الفارابي ، الطبعة الأولى ، 2005.

9- علي بن إبراهيم النملة ، نقد العقل المعاصر ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى .

10- عمر فروخ ، ماهر عبد القادر ، حسان حلاق ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1990.

11- فاروق عمر فوزي ، الاستشراق والتاريخ الإسلامي ، منشورات الأهلية ، عمان ، الطبعة الأولى ، 1998.

الدوريات والمجلات :

1- مجلة إسلامية المعرفة ، العدد 22، 2000.

2- مجلة العالم العربي في البحث العلمي ، العدد 24 ، 1994.